

# أصابع البحر

## قصة بقلم مطاع صفيدي

كل ذلك كان غارقاً ، عندما اتيت انا وهي ، في عدم ايض بارد .  
انهم يثرثرون . وينتبهون لي . فيحارون . ثم تغلبهم العادة ويفشاهم الايقاع  
والسائق حشاش . والمسافرون ثرثارون . وانا نظارة سوداء وقبعة صيفية .  
ووجه الى الخارج . والسائق حشاش ، ولكنه يحتقر البضاعة فيصمت مثلي .

هذه ( إهدن ) . ويستقبلني الأسدان العتيدان على جانبي الطريق .. وبعد  
تمثال لحيوي عظيم ، وبعد ناقوس حاد ، وآخر على الأكمة الثانية ، وتمثال  
على حصان ، وكنيسة كبيرة ضخمة ، كصخرة من الجبل هائلة ، وبيوت طينية  
ونساء الأسود . الأسود على الرأس وعلى الجسد والرجلين . والوجود المصفرة  
المجمدة . والمهججات الحادة . ومعارض الفاخرة الرائعة . وساحة القرية .  
وسيارات المازوت بروائعها القذرة وحشرجها النشاز .

والفندق ، أو الفيلا . والقرميد الخائل . ورائحة القرية . وكآبة حلوة .  
أصعد السلم الضيق . والآن ستستقبلني صاحبة الزل ، المدام ، الست جانيت .  
وسأسمع ترحيباً بالعربية والفرنسية والبرازيلية . ويتحرك النعم بالكلام المختلط  
وتزهو بالبشرة السمراء كالقهوة البرازيلية التي تدمنها هذه المدام .. ويتاح لييد  
وللجذع وللرأس ولهذا الانسان كله ان يتذوق المجاملات ، وان يحس بثقل  
قيمته ، وان يتنفس حسب الاتكيت .

واقترح حوالي ، وتنطق الست :

- نعم يا استاذ ، كل شيء لم يتغير عندي ..

وتنطق . وارى الى الصلاة المكشوفة . والكراسي المنحوتة من شجر الأرز  
والمناضد ، وقد ارتكزت على قوائم ، هي اغصان قطعت وتركت كما هي .  
والمصابيح محلية كذلك .

وتظهر الست جانيت علامم الدهشة :

- وأنت وحيد يا استاذ .. مسكين ( بالفرنسية والبرازيلية ) .. اين  
المدوازيل .. يا الهي كم كانت جميلة مهيبة ، مثقفة .. ولكها خزينة . ظننت  
انكما سترجمان معاً .. ترى ما اخبارها يا استاذ ؟

واقول اي متعب ، واب اود غرفة .. الغرفة نفسها .

- نعم ! نعم ! رقم ستة ، الى جانب غرفتها رقم سبعة .. من حسن الحظ  
انها ليست مشغولتين !

- أريد الا تبتين .. سجليلها باسمي من فضلك !

هذا غريب ولاشك . غريب بالنسبة لها وبالنسبة لي كذلك . اني سأصعد  
الآن . وأجاور غرفتها .. الفارغة .

إنهم يثرثرون . إنهم يصمتون بعد كل عجالة مبهورة الأنفاس ، بعد كل  
دوامة كلام . وينظر بعضهم الي . إنهم يعجبون . فمن أنا . ولماذا لا اتكلم ؟  
ويتأملون شاربي الأسود الكت مرة أخرى - ولم يكن لي ذلك الشارب في  
الشتاء الماضي - ويحدجونني وقبعتي الصيفية ، ونظارتني السوداء . وينفرون  
من ملامح لا تقول لهم شيئاً ، ومن ازورار أكبر منهم . وتنسفع عيونهم  
فوق جذعي العالي ، وتته في أنوان سترتي . ويرون الي جلستي . اني أعقد  
ساقاً فوق ساق . استند بظهري الى المقعد . أدير وجهي الى النافذة . انظر الى  
الطريق . واتابع صعود السيارة في الطريق الخليلي الخاروي . ويفهم بي شرودي .  
انهم يتابعون السنهم . وهنا كلمات تسترسل : واقواه تنفتح وتنغلق  
وعيون كالحرز . ولعاب مر . وشبه دوار وسخ دبق . ودخان سجاثر  
وعرق يجري . وسائق مشدود الي عيونه . لا يبالي . حشاش . إنه يصعد هذا  
الطريق وينزل عشرات المرات في اليوم الواحد . فليس حوله منظر . ولكنه  
موت . وليس وراء المنعطف حادث . ولكنه انعراف عن الخطر . وليس في  
الهوة رعب . ولكنه بقعة سوداء بلهاء .

اعرف الدرب المتتوي ، ومن قبل .. شريط الأسفلت الخالك ، الملتف  
حول عنق الصخور ، على انشاطي من بيروت الى طرابلس . من مدينة  
الدهاليز الى مدينة الشمس الساطعة والنهار الصامد . ومن ثم ارتفاع على ربوة .  
وزرقة في الخلف مسطحة . وخضرة مبرقشة بسواد الصخر نحو اعلى . وبلدة  
حمراء على طرفي الطريق ، تغلق الأخشاب المسطحة الكبيرة ثغرات جدرانها ..  
الأبواب والتوافذ والدكاكين . بلدة مهجورة في الصيف ، يرحل أهلها صوب  
الصخر ، نحو اعلى وابدواقي .

وبعد .. غابات الزيتون في سهل تحمله هامات الخيل . وطريق مستقيم طويل  
ودوي في الأذنين . وشبه دوار في الرأس . وهذا هو جبل آخر .. كمومياء  
منبسطة على صدرها ، تراه الآن من جانب . نلتنت حوله . تراه من منكبويه  
العاليين بدون رأس . ترتفع . وندور . وهذه هي الكنيسة الوحيدة على الأكمة  
الصخرية . ان البناء شامخ رهيب والصليب فوقه اشارة ابدية ساكنة . سترى  
الكثير من هذه الكنائس على الأكمات الصخرية ، وصليلانها النحاسية اللامعة .  
وسنظل نرفو اليها من اسفل . ترتفع . وندور . وينعشي هواء الجبال .  
وبرودة عذراء خفيفة . وحضاب كاسية تلمع بخيزرة الشربين ، ووجود من  
الصخر الحديدي تفجاً وتصنع وتختبي . وجدران واقفة . ومقر فاغر .  
وذرى تتخطاها ذرى . وصرير الحشرات . وبعض فراشات تحمل سمفونية  
الوان على اجنحتها .

- تفضلي .. اليك هذا المقعد المريح قرب المدفأة . لا يمكن للمرء ان يواجه العاصفة ، ولو من خلف الزجاج ، إلا وتأخذه قشعريرة برد .  
وبحركة آلية جلست بقامتها اللينة وجسمها المدور الصغير ، وقالت وهي تبسم بشرود :

- ما أشد رحشة هذا المكان ، كنت أتمنى لو ان الفندق كان فارغاً من الناس .. ألا يصبح أجمل في رأيك .. ها ؟

قالت بملها الأخيرة برنة عذبة صغيرة تناسب صغر فمها ورقة الشفتين الورديتين . وكان هو خلال ذلك يلم بكل عنصر من جامها . ويتأمل ذلك الوجه الأبيض والشعر الأسود ، والمسحة الشاحبة ، محاولاً ان يصنف هذا الجمال في نوعه . وفي الوقت نفسه يسمى للسيطرة على اعصابه . فلقد سحرته الفتاة وهزت كيانه ، ما ان تمكك ناظره منها وهي تجلس قبلكه بهدوء . بل وشرود وعفوية رائعة .  
- ماذا لا يدعوننا نخرج في العاصفة ؟  
ان من يتأملها من خلف الزجاج في الدفء كمن يحترقها . لقد أتيت الى هنا منذ عشرة أيام . وهذه اول مرة أرى فيها العاصفة الثلجية ..

- إلى هذا اخذ تحيين العواصف ؟  
وتابع بالعربية وهو يضحك ، « ولكن العواصف لن تبادلك هذا الحب » وهنا قالت متعجبة مسرورة : « او تتحدث العربية . كنت اخشى ان اتكلم العربية بين هؤلاء .. العرب في النزول ، حتى لا يسخر مني هؤلاء المتكلمون . ان أكثرهم من لبنان ، ومع ذلك يحسب نفسه كأنه في نزل بسويسرا .. هل زرت سويسرا على فكرة ؟ .. انها لا تفضل لبنان كثيراً ، سوى ان أهلها يفخرون بلبقهم وبلادهم أكثر .. مما يفعل أهل بلادك . أمن بيروت حضرتك ؟ »

- كلا ، من دمشق .  
- آه الشام ! يودي لو أراها مرة ، اعتقد انها مدينة رائعة ولولم اشاهدها بعد .. انها مدينة قديمة كما لو ان ابا الهول تحرك فتحول الى بيوت ومدينة .  
وعادت ترنو ثانية الى العاصفة في الخارج :  
هل لديكم ثلج بدمشق ايضاً ؟  
- أحياناً ، ولكن لثلج الجبال نكهة اخرى ..  
- نكهة !  
واعجبتها الكلمة . والتمعت عينها بالجوهر الاسود الوحشي . وتابعت :  
- كأنك تننوقه ، كأن الجبل تحتضنه روحك . ماذا تصنع بدمشق ؟  
- لا شيء . !  
- اليس لك عمل ما ؟



الصالة الداخلية تجمع بالمسافرين . دخان السجائر وبخار الانفاس . والمدفأة الكبيرة في الوسط وحولها ازدهام مكتظ بالشباب الذين وصلوا توأ من ساحة التزلج في الأرز ، ووجوههم وأكفهم الحمراء يصطرع فيها برد الأعالي وحرارة المدفأة .

ويراها للمرة الثالثة منذ زل هذا الفندق تقف خلف الواجهة الزجاجية الكبيرة . تكاد تلتصق جبينها بالزجاج . وتتجه نحو الورديان والسفوح البيضاء . والأفق البحري البعيد المزرق خلال شقوق غمامي عميق .

تجمع شعرها جديدة خلفها . وتضع على رأسها قلنسوة مخملية . وتغطي جذعها الصغير بكثرة من الصوف الحريري الحريري . وترتدي بنظالا اسود ضيقاً . وتنتمل حذاء من الجلد والصوف صنع خصيصاً للجبال .

كان يرقبها منذ يومين . وعرف انها تجلس الى مائدة الطعام وحدها . وتساكن بالقرب منه وحدها . وسأل عنها الست جازيت فاخبرته انها مصرية ثرية بنت أحد البشوات السابقين . وان لها مربية تركتها في طرابلس ، او انها مصابة بالضعف ولا يلائمها الملو .. وان صاحبة النزول نفسها هي التي رعاها الآن ، وضحكت المدام ضحكة ذات منزى وقالت له معقبة :

- أرى .. انها اجمل فتاة هنا .. على الرغم من ان زلي محظوظ بالبحيليات دائماً .. ولكنها كما تلاحظ تشكو من ألم مجهول .. انها بدون رفيق .. وأنت كذلك .. فما رأيك ؟  
وصدنت . وغرقت بعينها وتابعت :  
- ما رأيك لو اني قدمت اليها ؟ وسارع مرتبكاً :  
- شكراً .. شكراً . ولكن ليس الآن .. سأقول لك متى .

وبعد الظهر من ذلك اليوم هبت عاصفة ثلجية مخيفة . وهبطت درجة الحرارة فحبس المسافرون جميعاً في النزول . وحوالي المساء اشتد البرد ، فانزم أكثرهم الغرف باكراً .

وفورعت الردهة .. إلا منها . تذهب بين المدفأة في وسط الردهة وبين الواجهة الزجاجية . تتزود بالدفء لتلق لقاء الفضاء الأبيض تتأمل .  
وأما هو فقد فرغ من قراءة كتاب ونزل من غرفته الى الردهة . ورأسها وتوقف . ثم جلس على مقعد وثير قرب المدفأة . وراح ينظر اليها من خلف . وكان الفتاة لم تشعر به ، فلما استدارت بعد لحظات لتأتي نحو المدفأة فوجدت به . وهذه المرة لم يكن بالمستطاع اللقاء تحية عابرة كما كان يحدث من قبل عندما يصادفها او تصادفه على السلم ، خارجاً او داخلاً الى غرفته .  
وقال لها بالفرنسية مشجعاً :

- اعني أن عملي لا يرتبط باحد ، ولا يسألني عنه انسان اني اجمول وافكر  
واكتب أحياناً  
- امن الكتابة اذن تعيش ؟  
- كلا والف كلا ،  
وضحك الرجل واردف قائلا : ان لي بعض العقارات تسمح لي بالاستغناء  
عن الوظيفة ، وان كان ايرادها لا يرتفع كثيراً عن مستوى رواتب الموظفين .  
ومرت فترة صمت مربكة . وكان يمكن ان يسترسل فيحدثها عن حياته ،  
لولا انه لاحظ ثرودها عنه مرة ثانية . لقد كانت كمن تستمع من سطح اذنيها  
فحسب . ان لسانها يجري بالكلام لمجرد الكلام . او هكذا ظن على الأقل .  
- وماذا عنك يا ..

- رجاء .. انا ؟ انا لست الا  
مجرد فتاة . اني اجمول مثلك ولكنني  
لا اكتب .  
وفي تلك اللحظة قطع التيار  
الكهربائي . وغرقت الردهة لبرهة  
وجيزة بالظلام . ثم اعتادت عيونها  
عليه ، وكان انعكاس الثلج يعطي  
قليلاً من النور الباهت . تضي عليه  
المدفأة من جمرها ، لونها قرمياً حياً .  
وهمس قائلاً بصوت رخم : « انا  
فنتقل تدريجياً الى ملكة الجبل الرهيب ..  
ولم يبق الا ان ترتجف من البرد  
والخوف المجهول . » وكانت أخيلة  
النار من المدفأة تلقي تموجات  
متودجة على صدرها ووجهها الساجي  
الشفاف . وفي فضاء الردهة الكبيرة  
خلال الألسنة النارية تتلاعب على  
الجدران والسقف ، كملحمة من  
الحان صامتة . واشعل لفافة وسأله  
هل تود ان تشرب قديماً من الروم .  
وقبلت رجاء . فقام لي جلب زجاجة  
الروم من غرفته . وبينما كان  
يصعد الدرج ، راحت عينا رجاء  
تأملان القامة القوية . والمنكبين  
المرضين . انه شاب معبر غريب .

وحينما عاد الفى الردهة خالية . ورأى بقايا الثلج خلف باب الواجهة  
الزجاجية . فرفع ياقة سترته وخرج . واتجه الى اقرب مكان يمكن ان تذهب  
اليه . وكان يوجد بالقرب من النزول حرج من الشربين الكثيف .  
لم تكن الرياح على مثل عصفها العنيف الأول . ومع ذلك فقد كان عويلها  
مرعباً في مثل هذه الأمكنة الخالية البيضاء كوجه انعم . وما ان وصل الحرج ،  
وقطع بضع خطوات في دربه الضيق وغاصت قدماء في ثلج بكر جديد ، حتى  
لمح رجاء وقد احتمت بدغلة كثة . والقت رأسها على جذع شجرة . واقتراب  
من الدغلة هدهده وحذر . وسمع ما جعله يتسمر في مكانه ، كانت رجاء تبكي  
في نشيج غريب .

شهران عيقة محترقة بنار غامضة تندافع من الصدر ، وكان به عالماً من

الأم الحبيس والزروع المخنوق . كان في بكائها رنين غامض . لم تكن دموع  
أم تلك التي تحرق الحدود ، الشاحبة الساهمة . ان في النشيج لروحاً اعنف من  
الخرن . ولشرفاً أصيلاً أكثر من مجرد ياس . كانت تبكي وتحاف وتثور  
وتتمزق ، وكان هو يشعر ان هذا البكاء ليس له سبب معلوم ، انه ظاهرة  
طبيعية ، كهذا الجبل ، وهذا الحرج الأسود في الرقاع البيضاء . فلا يمكن ان  
تفصل الشبهات عن انات الرياح . ولا ان تعزل القامة التي تهتز بنشيجها عن  
جذع الشجرة المجاورة لها ، وهي في رعشها الباردة تلك .

وطغى على عذيف الرياح صوت شاحب ممزوق لاقوس ضائع في الوهاد  
الصامتة . وهدأ الصدر المختنق . وتلاشى النشيج . واصفرت رجاء ، ثم ما  
لبثت ان تحركت جهة الصوت  
المعروق . وراجع هو خلف جذع  
كبير .

سارت زجاء بقوة مبهمة غريزية  
نحو مصدر الصوت . وتأنتها  
تعرف الطريق . فنزلت الى ساحة  
القرية الخالية ، ثم انحرفت الى طريق  
جانبي . وبلغت ساحة الكنيسة  
الكبيرة . تلك الكنيسة العامرة  
بالأسرار الدينية والأساطير الصوفية .  
ومن الغريب ان باب الكنيسة في تلك  
الساعة كان موارباً دون اغلاق .  
ودخلت رجاء . وكان هو الكنيسة  
المفتطر مظلماً صامتاً . وعند  
القربان كانت بضع شموع ترسل قبساً  
نحيلاً من نور أصفر حائل .  
وجلست رجاء في الصف الأول  
من المقاعد ، ولم يعد بإمكانه غير  
ان يرى رأسها المنكسر من خلف .  
واستمر قرع الناقوس في نغبات رتيبة  
متطاولة ، ترسل اصداها الى هذا  
الكائن الكبير الضائع في البرراري  
الجلبية الثلجية . الذي هو الصمت  
الشفاف .

وما سمحت لنفسها أكثر بان ارقب رجاء في خلوتها الغريبة تلك فانسحبت  
عائداً الى الفندق دون ان اخشى عليها شيئاً . لقد كنت واثقاً حقاً انها سترجع  
في اللحظة المناسبة . وما استطعت ان اغفو تلك الليلة وانا في فراشي ، تتناوبني  
اشباح افكار متناقضة . وتترامى لي رجاء وكأنها كائن من عالم غريب .  
وسمعت باب غرفتها يفتح هدهده . وصبرت طويلاً حتى ايقنت انها نامت  
تماماً .. فأغمضت عيني .

في صباح اليوم التالي ، كان الطقس ساحياً . والسما زرقاء صافية ترسل  
أشعة دافئة متوهجة كشمس الصيف . وفي الواقع كانت الحرارة تنبعث من الثلج  
نفسه وهو يعكس اشعة السماء على وجوهنا ، فيبهز انظارنا .

والتقيت بها ونحن خارجان من حجر تدينا المتجاورتين كالعابدة . ومن  
العجيب ، بعد تلك الليلة المهمة وتصرفات رجاء ، أن رأيت وجهها يطغى



بشراً وحيوية . وقد ابتسمت لي بنشوة فرحة وتأبطت ذراعي مباشرة .. وراحت في سيل من الأحاديث الهيجية . وجلستنا ذلك الصباح على مائدة واحدة للطور . ثم أخذنا كذلك مقعداً واحداً في الأتوبيس الذي نقل جميع الزلا في ذلك اليوم الى الأرز .

وكان نهراً ممتعاً قضيناه في التزلج على الثلج الأملس الصلد ، واللعب ، وجلسات الأحاديث ، وتبادل النظرات الطافحة بالمعاطفة والبهجة . وكانت تقول أثر كل دورة تزلج أنها تمنى لو ان السفح لا ينتهي ، فتبقى ساجدة على ثلجها الى اعتمق هوة ..

انها لا تصعد الى ذروة الا لتخاف اكثر ، من هوة وقمر جامد . - كان نهراً حافلاً .. لم نفتقر لحظة عن بعضنا يا رجاء .

ورفعت قذح النبيذ الى شفتيها وتلمظت الطعام العنيف والتمتع الجوهر الأسود في العيون الدعجاء الساجية واجابت بعذوبة هائلة :

- وها نحن معاً كذلك على مائدة العشاء . انه لطعام لذيذ ، لم أذق مثل هذه البفتيك .. ترى كيف يمكن ان يعبر الانسان عن مدى فرحه للآخر ؟

وقلت وانا اغامر بكل شيء :  
- انها كلمة واحدة يا رجاء .. انتظر ان نقولها معاً .

وحصل ما لم يكن بالحسبان . فقد امتص الفرح من وجهها ، وعاوده شحوبه ، وشمرت انها تحبس الدموع .

- هل آلمتك ؟ . عفواً يا رجاء ، إنني ما قلت ، انها مجرد نزوة .  
- لا تقل هذا يا كمال ... انت تعلم انها ليست نزوة ، يجب ان نواجه

الواقع في وقت قريب .. قريب اكثر مما تصورت في البدء ..  
وغشها الم صاعق . وخفت ان تتطور الحالة الى ما لا تحمد عقباه فحاولت

ان اغير مجرى الحديث .  
وفي تلك الأمسية سهرت وحدي . ولم ارها في اليوم التالي . وسألت عنها

صاحبة النزول فخبرتني انها لا تعرف بالضبط مكانها . ولكن من عاداتها ان ترجع الى طرابلس بين مرة واخرى لتلتقي بمريبتها .

وقضيت النهار قلقاً لا ابراح الفندق ، لا ادري ماذا افعل سوى ان اتنقل بين غرفتي والردهة والشرفة . ارقب كل سياراة تقف امام باب النزول .

وحل المساء ونجاءت  
المدام تشاركتني وحدتي ،

فدعتني لتناول قذح من  
القهوة البرازيلية في

غرفتها . وهناك راحت  
تقص علي بعض حوادث

شبابها في البرازيل . ثم  
حدثتني عن زيارتها

لأوروبا والتقاها ببعض  
الشخصيات السورية ايام

الانتداب الفرنسي ،  
الذين جاؤوا باريس

مفاوضين المستعمر .  
ورغم ان احاديثها كانت

مليئة بالمبالغات واساليب  
النفج ، فقد اخذت أشعر

تدريجياً بنوع من الراحة بعد اضطراب يوم كامل .  
ولما هممت بالخروج من غرفة صاحبة النزول شاكرت لها خفاوتها بي رأيت

الخادم يهرع اليها قائلاً بصوت مرتجف :  
- سيدتي . ان المدموازيل رجاء اصيبت بحادث

وهرولتنا خلفه فرأينا اثنين من الفلاحين يحملان شيئاً مغلفاً بالبساطانيات  
الصفوية . وقال احدها :

- لا تخف .. انها سليمة ، ولكنها مصابة ببرد شديد . يبدو انها بقيت في  
الثلج ساقطة ساعات طويلة .. لقد رأها انطون مددة في اسفل الوادي عندما

خرج من بيدي بعد انتهاء السهرة .. ولا ندري ما الذي اوصلها الى قريتنا ..  
انت تعلم ان قريتنا ( ... ) واقعة على صخرة عالية وتحتها واد عميق ، نحن

لم نسمع صوت سيارتها عندما اتت . ربما وقفت على حافة الصخرة .. واصيبت  
بدوار فسقطت ومن حسن الحظ انها وقعت على كومة من الثلج الحديث الطري ..

ويبدو انه اغمي عليها وهي مددة على الثلج .. وكادت ان تتجمد .. ينبغي  
العمل على تدفئتها حالاً ..

وتهدت رجاء . والحمرة الخفيفة تتسلل قليلاً الى وجنتيها . والجبين السفيح  
يبعث انعكاساً ظليلاً . والجسد يتململ تحت الاغطية السمكية . والغرفة تعيش

على نور الثلج ، ينسل من النافذة . وانا الاحساس الرتيب ، مع انفاسها  
الرتيبة ، بكآبة الشوق الذي ضل موضوعه ويعرف انه ضاله الى الأبد .

لقد بلغ الأربعين من حياتي . ولي وجه ذو تورده مصفر ، يتكون كله  
ويتجه ليرز في شفتين ، كموجتين ، حدثتا على شاطئ القضاء .. شلتنا عن

تعبير لا تقويان على نقله الى اللانهاية . وعلى طرفي رأسي كومتان من الشعر ،  
بفمران جزءاً علوياً من اذني ، وتفترزان في قاعدة جمجمتي .

انني قلما اتكلم . واذا تحدثت كان صوتي مجموعة رنات ، تحمل الكلمات  
غير معانيها . ان كلماتي ترن في اعماقي ، كما يرن الموج المنحدر من الأعماق

المظلمة في مغارة قاديشا . انني اسمع كلامي قبل اي اذن اخرى .  
وهكذا .. وجهي المتشكك الضائع . وصوتي الغائر . وعيني بدون افق

محدود . ورنوي الى رجاء ، واحساس الرتيب بانفاسها الرتبية .. وعالم  
السفوح البيضاء السحيقة ..

يجعلني وحيداً اكثر ..  
وحيداً اكثر مما لو كنت

في مزرعتي الصغيرة بين  
الصهراء والنهر والغوطة

قرب دمشق .. أقيم في  
ذلك التابوت الأبيض

الذي هو خيمة .. انشأتها  
في وسط دغلة . وحيد

أكثر مما لو جلست  
الساعات الطويلة في طرف

البيت الريبي المنتداعي ،  
بدون نور ، بدون رفيق

استمع الى الكلام ..  
والى انهيار الصخر في

الجبل العتيق .. وابحث  
عن معنى ان أكون ..



وحيداً .

لقد عرفت في مجال رجاء تلك الوحشة القدرية ، وحشة الوحدة . شعرت بخوف عينيها . ولفحتني ناراها الباردة . وطفقت في شroud نظراتها . وفي شحوب لونها .. وذقت كآبتها المهمومة بأسى السكون .

وها هي بدون وعي كواحدة من شجر الارز الصامدة . لقد مضى عليها ساعات وهي تستعيد فيها دفء الحياة .. وحنان لها اخيراً ان تراني .. وان يتحرك وعيها اول ما يتحرك .. حول موجة من لون وجهي الكاظمي .

— كم مضى علي من الوقت وانا على هذه الحال ؟ . او اه لقد كانت القرية عجيبة . عدة بيوت كأنها صخور ، ترتفع فوق هامة صخرة هائلة واحدة .. وكان المنظر رائئاً .. كنت على الحافة .. والسفح جدار .. لا أرى قاعدته .. كأنه اقيم من اسفل الوجود .. من الجنور ، من خضم الوحشة العذراء .. اتطلع الى الغور .. وأصغي الى نغم الصدى المكبوت ، يتصاعد من كائنات الأعماق .. ساكون نجمة تهوي .. وتهوي الى ما لا نهاية .. سيكون الليان هو لون فضائي .. وتجيش نفسي بالإرادة الأخيرة .. انني اندفع الى العدم كما لو انني اطير الى اعظم وجود .

« أستاذ كمال .. لم اعش مثل هذا الوضوح طيلة حياتي .. لقد كدت أن ادرك مجهولي . لم يكن ثمة شيء عندي بدون حدود .. لقد ادركت في عمري الصغير كل حد للسعادة .. كنت اجهل فتاة في المدرسة .. وأولى الطالبات في النجاح .. كنت وخيدة بيت عريق بالحسب والثروة .. وتزوجت من أحب ، ورجلي مثقف غني جميل .. ولكن كآبتي كانت كضمير بدون حواس يطلع بواسطتها على موضوعات احساسه . كنت تيساً مغلفاً بضباب ازلي .. است اعلم ما هو الصباحي وماذا انير .. والى اين يتد شعاعي .

« حتى آتيت الى هنا . وكنت احسن احساساً ملحاً مسعوراً ان هنا معجزة تجذبنا اليها مرة والى الأبد .

« كانت الحافة حادة كمنصل سكين . والغور فراش من النعام وعق بدون قرار . وكانت نشوتي .. أثقل ما بي فسقطت . »

وقلت همس وجل :

— أأحببت الموت هكذا .

وصاحت مرتعدة :

— اتسمى هذا موتاً .. إن حياتي لا تشبهها حياة .. وكذلك سيكون موتي .. لقد شاركني كل الناس في مسرات حياتي .. ولكن هذا الشيء .. هذه الومضة ، هذه الفرحة هي فرحتي .. انها ملكي انا وحدي .. لدرجة انني لن استطع حتى انا نفسي ان أقول عنها شيئاً .. انها عظمتي .. انها مجري .. ولن تكون له غير موجة واحدة ..

— لست احب ان اقول ان هذا يمكن ان يوجد له اسم في القاموس ليس انتحاراً كما تريد . ليس كذلك ؟ .

وجلست في سريره وشعرها الأسود غيمة ليلية حول وجهها البض الحزين ملقى الى الخلف .

— لماذا لا نحاول ان تفهم يا استاذ كمال ؟ لقد حسبتك قريباً مني وكنت اري فيك انساناً من فصيلتي .. كنت ارقب خطواتك المنتظمة كنفات صامتة في ملحمة وجودك .. وكان وجهك وتحياتك الصباحية مصدر امل جديد لي .. الى ان اردت ان تسمى علاقتنا بالحلب .. ان تحصرها في هذه اللفظة المبتذلة الضيقة .. وها انت الآن تشوه حادثي فتنته انه موت او انتحار .

وهذأت قليلاً ، وسرحت بانظارها حولي :

— ولكني لا أشعر بالرغم من هذا انك مجرد كائن .. مجرد انسان عادي . وكان علي عندئذ ان احدها قليلاً عما اريد ان اقول لها شيئاً يؤكد ثقتها بي .. بل يفجأها ويدهشها . بيد اني عدت الى اسلوبه هذا الذي كادت تصفني بسببه اني عادي .. مجرد عادي . فقلت لها :

— اليس من سبب لكي يموت الإنسان ! ؟

— وهل من سبب لأن يمنع الوجود الحياة ؟ ان هناك شيئاً أقوى من الحياة يدفعنا لأن نموت .. الموت تجربة لا يعرفها احد ، ولا يستطيع ان يصفها احد ، انها السؤال الوحيد الذي يحمل جوابه في ذاته .

— ولكن الموت لا يأتي بقرار ، ان الموت هو غير الانتحار . فالانتحار مجرد حادث من عالم الحياة والأشياء .. واما الموت فهو مطلق ذاته .. انه المجهول الحقيقي الذي نبحث عنه ، ولن نبلغه بارائنا .. انه الامكانية الوحيدة التي هي فوق حريتنا .. ان الحرية تتطلب ان تكون لنا آمال وهموم واتجاه في الزمان وحدود في المكان .. ان الحرية تقترض وجود العالم .. واما الموت فهو قفزة الى ما وراء الزمان والمكان .. انه فوق العالم . ولهذا لا يمكنك ان تموتي .. مقضي عليك بالحياة . ان كل شيء يمت الى الحياة له اسباب وظروف ، والانتحار لن يشد عن ذلك . واما ما ليس له اسباب فهو الموت . اننا لا نعلم لماذا نموت . اليس هذا ما تريدن ، اليس هذا ما يحقق لك الشيء غير المعقول اطلاقاً ، هذا الهم المسعور .. انك لا تسعين الى الموت الا برغبة من اعنف رغبات الحياة .. هي معرفة الحياة .. تحدي الحياة !

وتوقفت ، وكنت اتحدث بلهجة حادة سريعة . وذهلت رجاء ثم تمتت :

— قلت انك لست غريباً عني .. ولكن كيف يمكنك ان تتحدث هكذا ؟ اليست تعابريك تلك تقصر عن احساسك بالموت ، عن شعورك بمأساتك .. بشيطانك الوحشي هذا .. الا تخون نفسك كثيراً ، عندما تعندي على حرمة صمتك ؟ ما الذي يجبرك هكذا على ان تسمى مجاهيلك ؟ وقاطعتها هذه المرة لأقول لها كلمتي القديمة دون وجل :

— انه الحب يا رجاء ، انه اللغة التي تتفاهم بواسطتها وحشتان في هذا العالم المرعب .

— وماذا ينفع حبك هذا يا صديقي ؟ ماذا يجدي صمتنا ان غشيتة ضجة .. حروف او لغة تتخاطب بها وحشتان .. وحشتان لن تزيدهما المحاوراة الا أسمى ووحشة بالغة ؟ ان الوحدة لا تتكلم . واذا تكلمت فلن يسمعا احد .. انك بعيد عني يا كمال .. لا اراك ولا احسك ، ولا يجعني شيء اليك . وأما حبك .. او حينا — لا بأس — فليس هو الا كحب كوكبين . لكل مداره الخاص الذي لن يلتقي بالآخر .. يرى نور الآخر ، ولكن كل واحد يحس بحميمته الخاص وعزله المطلقة . ماذا تريد يا كمال الا ان يمزقنا أسانا الجديد ؟ واعولت الريح من جديد . وهنالم تتألك رجاء نفسها من ان تصرخ بي :

— اني خائفة يا كمال .. اقترب مني ارجوك .. خائفة .. خائفة ..

ولكن كمال يقوم من على كرسيه ويفتح الباب ، ويفلقه وراءه وهو يسمع نسيج رجاء . لقد كادت تبكي . وكمال يخشى ان يزيل خوفها ..

وقدح الروم يتلوه قدح آخر . وارفض ان اشعل المصباح البتروني في غرفتي . وانكمش في سريري . واخرج لآتي بزجاجة عرق . ثم التحف فراشي واساق عرتي . وتحيطني العاصفة . ويلحني العويل . وفي الخارج ، في الكون المسجي ، وبين عمالقة الجبال ، في مغاور الازل الأخرس . وحيث ترتعد الريح من نفسها وفي دوار الذرى ، وحيث يجأ الرعب . وترى الامنة

نفسها . ويهار الزمان .. في نفسي ، وأفقد كل شيء إلا حس الضلال .. إلا  
أنا .. الوعي المجنون في عالم الشخوص الجاهل .. في رعب النهاية وقدواجهنا  
اللانهاية .. لانهائية الانسان والجبل الأجرد وحب الموت ، هذا التحدي المسعور  
لإله الوحشة .

وفي غرفة أخرى ، في تجويف بعيد ، كمنارة في جبل حرم مفقود .. في  
ناحية ثانية من العالم .. كائن يرتد ، وينحر نفسه بظلمة الشعاع البارد ،  
ويختبيء ، وينشج لوحده ، ويصارع خوفه ، ويلصقه أكثر فأكثر بقلبه ،  
القلب الذي يلقي قدره مع كل صفة غريبة خلال الفراغ .. فراغ بين  
الاضلاع الحادة .

انه كائن لا اعرفه . لا افهم همساته . ولا احنو على تضرعاته . انه يتعب  
إلهاً غيبي . انه يشاركني حرية ان اكون وان اتلاشي . انه يلاحظني ، ماذا  
اخاف ، وماذا اريد ، وكيف اتحرك ، وكيف أعتصر دمي ؟

ومن قال لها انني لم آت هنا الا لأتزوج ؟ واتممع بالأعالي اللبجية . من قال  
لها انني لا ابحت عنه انا ايضاً .. لا ابحت عن موتي الخاص .. !  
وعند الفجر .. فجر الجبال الشتوية الذي لا يطلع ابداً .. وجدتي قريبا ..  
اتمسس عنقها ، وازفر لصق لحمها انقباضي الرتيبة العميقة واعبث بالشعر  
الأسود .. واغوص خلاله . وتهدأت بين ذراعي .. صغيرة ، مضفورة ،  
مسفوحة العنق والحصر والساقين .. تبرد ، وترتجف . تتأوه . تغمص جفنيها  
باستمرار . لا تنظر إلي .

« لا اراك ، لا احسك ، لا يجمعني شيء اليك . ! »

واحاول ان اقول لا . ان ابرهن لها أنها انا .. وانه مع ذلك لا حرج ان  
تخاف . ليس ثمة ما يجعلنا نخشى ان نفقد خوفنا يا رجاء . ان اشجار الأرز  
مجاورة لنفسها منذ بدء الوجود ، ولكن كل شجرة تحمل تلجها على اضلاعها ..  
انه لا يبدو عليها أنها تتضام حقاً .

ليس من حوار بين الجبابرة . !

وتتم رجاء بذلك الصوت المغفل القديم :

« زوجي يعرف انه يجيني ، فهو يضع الخطط لأن .. يجيني . لأن يستلقي  
الى جانبي ويثر قصيدة لصقي . ويتلمس . ويشدني اليه .. كأنني أضيع .  
ويوظني يقبله كما هدديني يقبل . ويعمل على تغيير أثاث المنزل وغرفة النوم  
كل ستة اشهر .. ويدفع مئات الجنيهات ثمن حاجياتي النافهة .. ويساعني اثر  
كل خطيئة .. ويكي عني . ويعد برامج سياحاتي .. ويتركني اعبت بالوقت  
والمال .. والقيم .. وكل شيء يحبه هو .. إنه رجل كامل .. ولا ينسى اعيادي  
وهداياي .. يفعل كل شيء ، لكي لا افعل شيئاً تلقاه .. واقسى كلمة .. تأنيب  
يوجهها الي هي اني خيالية . وهو يخشى علي الا اكون اعمى شيئاً مما حولي ..  
وهذا الجزء الكبير مما حولي .. زوجي العزيز ..

« ويدفع كذلك فاتورات الكتب . ويسألني هل اقرأ كل هذا ؟ ان شيئاً

واحد لا يفهمه من تصرفاتي .. هو هذه الكوم من الكتب على منضدة الزينة  
وبين طيات الفراش .. وعلى كل كرسي .. وحتى فوق ملايسه ..

« ولماذا انا حزينة . ولماذا انظر الى كل شيء .. اليه وكاني اقرأ في كتاب ..

ولماذا اضجر ، وقد احطم اثمن الآتيات . ولقد أفتع في غرقي المغلقة اياماً .

ولقد اسافر ولا يعلم اين أسافر . كان رجلاً شهماً .. ولا يتصور اني اخونه .

« ولا اعرف لماذا ارتبط به .. وتشدني اليه كلمات واوصاف واحكام

تجعلني دائماً بالنسبة له . فاذا بكيت فاني احزنه . واذا سافرت فاني اوحشه .

واذا توحدت فاني اهينه واذا قرأت فاني اهمله .. واذا قبلتك قربي ..

فاني اخونه .

« وكيف يمكن أن يتصرف انسان حتى لا يكون بالنسبة الى احد ! الا

يعلم زوجي .. وكوم اخرى من البشر ان الوجود ليس كله معادلات رياضية

قائمة بين وحدات لا توجد الا مقابلاً لبعضها ؟ ليس كل شيء علاقة ولغة

وقاعدة .. ومع ان الذرة ليست ذروة الا بالنسبة لهوة تحبها ، في قاعدتها ..

فان الانسان .. انساني ، هذا الخوف والسأم الصميمي المبحوح والظلمة

الموهومة .. هذا الجسد الذي بين يديك .. رعشاتي هذه وما لا ادري من مشاعري

الحبيسة المهمومة بحملي .. هذه الاناتعلق في الفراغ .. لا توجد بالنسبة لأي شيء

آخر خارجي عنها .

« وحتى حبك يخلقني ويصوغني الآن .. ولكني اتخطاه .. اترك تدرج حقاً

كيف تخبني ، وكيف احبك ! »

وغرزت اظفارها في لحم كتفيه . وشعر كأنها تقتله وخينذاك تكلم لأول

مرة وهو لصمها :

— لا يمكن ان تتشبي بي أكثر هكذا ، لست مجرد صحرة على حافة الهوة .

دوتك التي تبخثن عنها .. لتتذني فيها بجسدك المحموم ..

— اواه يا كمال .. انك لا تعيني ابداً . والتقاني بك كان اشارة رائحة لي

ان اتابع .. وتعظم كأبي ، كأنها ..

واغرقت وجهها في صدره ، ولسمته دموعها . كانت محتقة بشهقات النار

والدمع والحرقه العارمة .

— لا مفر لي يا حبيبي .. لا مفر لي .. اني اسير .. واسير ، وانت

تدفعني بقوة القدر نفسه .. وعندئذ ربما اتضح لي كل شيء . !

— وماذا عن حينا يا رجاء . ؟

— اواه الا تترك انه اشارتي .. الا تحس معي انه حجتي الكبرى اليوم ..

انه اسبابي .. ومع ذلك ليس له ابدأ طابع السبب والعللة .

— ولكنه يدفعني الى الجهة المعاكسة .. يفتح امامي طريقاً من الناحية المقابلة

ليطريقك .. انني اريدك يا رجاء .. انني احبك على طريقة كل الرجال .. وانتمى

ليس الحياة فقط .. ولكن الأبد كله .. لو امتلكه لي ولك .. حاولي ان

تشاركيني يا حبيبي .. ان تحمي قليلاً ايجابية هذه العاطفة الرائعة .

— ما زلت لانفهمي يا كمال .. لماذا تحسبان طريقي سلبية .. ليست عندما ..

وليست فراراً ، وليست نتيجة خيبة في حياتي ، فانا لا اعرف خيبة .. انني

احاول اعظم مغامرة في حياتي .. وحينها هذا ليس له الا ان يؤزم هذه المغامرة .

حتى تأخذ اعنف درجة هنا .

لا مفر لي يا كمال .. اقم لك ان لا مفر . !

وعندما تكرر هذه الكلمة كأنها تعاتبني - وان كانت لا تدري لماذا - اذ انني قد  
وجدت ، على عكسها ، مفرأ ومهرباً لي .. فانها لا يحامرها اي شك في موقفها .  
لقد كان الفرق بيننا يا حبيبي انك اردت لغامتك عمراً قصيراً ، بينما أنا  
أطيل منه ، واستمر في اطالته . ويحلو لي الا انهي هذه النهاية .. انني اعيشه



هاشم

بيروت

تلفون : ٢٦٠٧٩

مكتبة

شارع سوريا

كتب ادبية - مدرسية - روائية

ادوات قرطاسية

مبيع ومشتري كتب مستعملة

اني ما لا نهاية ..

انك اضعف من ان تتحملي .. وهكذا لا مفر لك مطلقاً

كان اليوم التالي صباحياً .. وارتدت رجاء كنزة وبنطالا اسودين .. ووضعت على رأسها قلنسوة صوفية حمراء .. وبدأ عليها نشاط عجيب ، لا يمت لليل إلا المس بصلة .. وعاودها مرحها ، فراحت تنتقل من غرفة لأخرى لتتحدث مع الزلاء وتضاحكهم ..

ودعت الى منضبتها صاحبة النزول واشخاصاً آخرين ، لم اعبأ بهم .. وانا منصرف بكلبي لتأمل رجاء .. وهي تطير من كل شيء .. حتى من بين اضلاعي .. واحس هذا الفراغ المنخور في جوف وجودي .. وانطلقنا ذلك الصباح الى الأرض .. واطهرت رجاء من الحيوية والرشاقة ، والانديفاع والمخاطرة .. ما جعل جميع المتريبين ينقطعون عن رياضتهم ويقفون يرقبون هذا المخلوق الجميل الذي ينساب من سفح الى آخر وكأنه من طبيعة هذه السفوح المخيفة والثلوج والآفاق البيضاء البعيدة ..

وعند المساء ودعت نزلاء الفندق .. وعبرت بي مصافحة ناظرة نظرتها الأخريرة ودون ان تقول أكثر من كلمة .. انطلقت الى طرابلس ومنها الى بيروت .. وركبت البحر الى بلادها ..

طالت وقفتي ههنا ، في هذه الامتار الخمسة المربعة من ارض غرفتها الفارغة ، وطال تأملي للوهاد والجبال والسفوح .. وافق البحر البعيد .. وارى تلوفاً عجيباً في هذه الطبيعة التي كانت قد اختبأت تحت عدم الثلج .. وتتصاعد حولي ضجة الناس والسيارات وحشرات الأجرار .. وهكذا يوجد كل شيء هنا بالنسبة لشيء آخر .. الحرج والجلل والفندق والمصطافون والسيارات وواجهات الفاكهة .. وانا .. انا بالنسبة لمن ؟ !

— يا عزيزي الأستاذ .. لقد دق جرس الطعام مند ربع ساعة وبجنت عنك في كل مكان .. انني مديرة فندق بارعة يا سيدي .. تهمني راحة كل ضيف عندي .. فلماذا اذن التركك وحدي في هذه .. في غرفتها .. ربما ستعود ، ان اي مكان تزوره سيقتي قطعة منها ليس كذلك ؟ .. وهي لن تنسى فندي الجميل .. وربما سترجع اثناء الشتاء القادم ..

— كلا يا ست جانيت .. ان رجاء لن تعود .. !  
— ومن قال لك هذا يا سيدي ؟ ان زبائني لا يهجروني على هذه الصورة المفجعة .. أهكذا قدر علي الى الأبد أن استقبل وان اودع كأني محطة قطار أثرية ؟ لا بد ان صديقتك ستذهب اذن الى سويسرا ، انها أثرية فإذا تفعل ههنا ؟

— انها لن تذهب الى اي مكان .. لقد ماتت يا سيدتي ، قالوا ان عاصفة قذفت بها من على سطح الباخرة الى البحر .. وهي عائدة الى ديارها .. وكان الرجل ذو الأربعين عاماً ، الواقف تلقاء النافذة المفتوحة على السفوح الخضراء والآفاق البحرية النائية ، الرجل الذي له وجه ذو تورود مصفر ، يتكون كله ويتجه ليرز في شفتين ، كموجتين جمدتا على شاطئ الفضاء .. ولن تلقيا مطلقاً ذلك الذي قذفته عاصفة الى الأبد ..

كان ذاك الرجل يطوي صدره الآن على جملتين او ثلاث من بطاقة خضراء .. لم تزل عليها بقايا من عطرها :  
« هذه الليلة ليلى يا حبيبي ، ولن يعلم بالأمر .. أن لا مفر لي .. سواك ، فوداعاً مرة اخرى .. ومن امواج البحر .. رجاء .. »

مطاع صفدي

دمشق

صدر حديثاً عن

دار بيروت - للطباعة والنشر

بيارة العازارية ، تلذبن سبلا بيروت - لبنان

١ - ابو حيان التوحيدي

الثنق.ل  
٢٠٠

اديب القرن الرابع الهجري وخليفة الجاحظ  
دراسة عميقة شاملة

بقلم

الدكتور احسان عباس

٢ - برنارد شو

الثنق.ل  
٢٧٥

العقل الساهر

اول دراسة شاملة لحياة برنارد شو وأدبه

بقلم

عبد اللطيف شراره

باغانيوني

الثنق.ل  
١٥٠

الكتاب السابع

من مجموعة اعلام الموسيقى

ترجمة : بهيج شعبان